

## دير الزور في زمن الخلفاء الراشدين للشيخ محمد سعيد العرفي

بعد حروب طويلة في زمن أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ، استولى المسلمون على تلك البلاد في سنة ٢٧ هـ وأذلوا من فيها من عشائر ربيعة . تغلب وبكر وغيرها ، وكانت فرقيسة هي المعقل لمن تحدته نفسه بالشر منهم . لوقوعها في رأس زاوية خطاها الفرات والخابور وهي شرقي دير الزور نحو عشرة أميال . فانتقضت عدة مرات ، فامر عمر بن الخطاب رضي الله عنه بهدم قلعتها التي لم يبق الآن منها الا أثر بسيط . وتسمى اليوم « البصيرة » بالتصغير . وأما في زمن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ، فقد حصلت فيها حروب صغيرة سنة ٣٧ هـ تلك الحروب التي سفكت فيها دماء عشرات ألوف من المسلمين ، وكشفت عن قلوب حنقة على الاسلام ، وجدهتها فرصة انفجر فيها بركان غيظها على الدين الحنيفي ، وابتدأ النزاع يستفحل منذ ذلك الزمن الى عصرنا هذا ، والله أعلم بما بعده ، بحيث لم ير الاسلام في هذه القرون الأربعة عشر سعادة وطمأنينة الا أدواراً متقطعة ، غالبها ممزوج بالآلام تترى وويلات تتعاقب

### دير الزور في زمن بني أمية

عقب قتل الحسين رضي الله عنه في موقع الطف من أرض كربلاء ١٠ محرم سنة ٦٠ هـ ندم الموالون له على تقاعسهم عن نصرته ، ورأوا أن هذا ذنب لا يغتفر الا بتجريد الحسام في وجه الأمويين . حتى يأخذوا الثأر أو يموتوا ، وإن التوبة هي أحد هذين الأمرين ، لذلك سعى هؤلاء (التوابين) وبدأوا يجمعون قواهم تحت لواء سليمان بن صرد الخزاعي الصحابي الجليل رضي الله عنه ، وبإيعونه على ذلك وما برح أمرهم بازدياد ، حتى اذا حلت سنة ٦٥ هـ أعلنوا الحرب ، وخرجوا من الكوفة باربعة آلاف على طريق الجزيرة ، حتى وصلوا رأس العين ، وهناك التقوا بالجيوش الأموية ، تحت قيادة عبيد الله بن زياد ، وبعد حروب طويلة كانت سجالاً ، انتهت في جمادى الأولى من السنة المذكورة بقتل سليمان رضي الله واكثر أعوانه ومعظم جيشه

ثم تقدمت الجيوش الاموية نحو سوار العراق الذي كان شعلة نار تتأجج ، ورأى المختار التقنى هذه الحال فرصة لما يريد من الملك وادعاء النبوة ، تحت ستار الطلب بئار الحسين رضى الله عنه ، فجهز جيوشه بعد ذلك ، والتقى بعبيد الله بن زياد فى السهول التى بين الموصل ونصيبين ، فقتل عبيد الله بن زياد واستفحل أمر المختار حتى قتله مصعب بن الزبير . ثم أن مصعباً قتل أيضاً ، وأرسل الحجاج بن يوسف التقنى الى العراق وبقي أمر الجزيرة ووادى القرات يدور بين هدنة ، واختلال حتى كان آخر خلفاء الامويين مروان الجعدى أميرها وفيها أعلن خلافته التى انتهت سنة ١٣٢ وبها انتهت الدولة الاموية

### دير الزور فى زمن الدولة العباسية

كان هارون الرشيد الخليفة الخامس للعباسيين ، قد اختار الرقة مصيفاً له ، ولا زال باب بلاطه موجوداً شرقى المدينة متصلاً بها ، هدم الافرنسيون قسماً منه بمدافعهم أثناء حروبهم مع المرحوم الامير حاكم بن مهيد شيخ عشيرة القديان سنة ١٣٣٩ هـ وكانت الرقة لارشيد العاصمة الثانية بعد بغداد ، ولكن هذا لم يمنعها من أن تكون منبعاً للثقل ، لأن ما فيها من الخيرات الكثيرة يدعو الى سهولة القيام بالثورات واعلان العصيان على الحكم لعدم الاحتياج الى زاد أو ماء ، بسبب كثرة الأشجار المثمرة من جميع الأنواع . ولكن لم يبق منها الا شجر البطم الذى يصلح ثمره غذاء يخزن ويؤكل فى الصيف والشتاء ويستخرجون منه زيتاً يأتدمون به . لذلك نجد فيها الثورات متتابعة ، وكتب التاريخ ملاءى بها : فمن ذلك فى سنة ١٦٢ هـ ثار عبد السلام بن هاشم الشكرى فى الجزيرة على المهدي العباسى ، وحاربه حتى اذا غرته قوته ، ورحل الى قسرين بالقرب من حلب ، قتله هناك شبيب بن واج أحد قواد المهدي .

وفى سنة ١٧١ هـ خرج الصحاح على الرشيد فى الجزيرة ، ولكنه قتل فى دروين من ديار ريبة ، وقد انقلب النهر الذى يجرى عليها ، وسمى باسمها (نهر دروين) وهو شعبة من الخابور يصب فى القرات . نجاد البوكمال ، ولم يبق الا آثاره حتى صار من الأمثال « خراب دروين وفى سنة ١٧٦ هـ خرج على الرشيد أيضاً النضل . ولكن لم يلبث الا يسيراً حتى قتل . وفى سنة ١٧٨ هـ خرج أيضاً الوليد بن طريف التغلبى ، وقتك فى ابراهيم بن خازم بن خزيمه والى نصيبين . واستولى على الجزيرة وأرض السواد ، ولا زال أمره فى سعة وملكة فى

انتشار ونفوذه في ازدياد ، حتى اذا هل شهر رمضان سنة ١٧٩ هـ أرسل الرشيد أحد قواده المشهورين يزيد بن مزيد الشيباني فما زال يجالده ويحاربه ، حتى خشي الرشيد أن يتفقا عليه لان كلاهما من ربيعة . ولكن قتل الوليد ، ولذلك فان الرشيد لما بلغه خبر موت الوليد اعتمر من ساعته شكراً لله تعالى ، وتوجه من حينئذ ١١ مكة المكرمة لاداء العمرة ، وقد تألم لقتله بنوا ربيعة ، حتى قال الشاعر معرباً عن تأثرهم من هذه الحرب بقوله :

وائل بعضها يقتل بعضاً لا يفل الحديد الا الحديد  
ورثته أخته ليلي بالقصيدة المشهورة التي أولها  
بقل تباثاً رسم قبر كأنه على علم فوق الجبال منيف  
ومنها البيتين المشهورين وهما :

فيا شجر الخابور مالك مورقاً كأنك لم تجزع على ابن طريف  
فنى لا يحب الزاد الا من التقي ولا المال الا من قنى وسيوف

ولا زال قبره على شاطئ الخابور بالقرب من كوكب . وقد اعتبرته العامة مزاراً يتبركون به ويقدمون اليه الندور ، كما يقع في مصر . فان الممالك قد دفن كثير منهم في المساجد أو فوق قبره قبة ، فيظنها الناس مزاراً للتبرك ، فيقدسونها باعتبارهم أتقياء بررة ثم مشى على أثر الوليد خراشة الشيباني ، فأعلن عصيانه على الرشيد في الجزيرة سنة ١٨٠ هـ ولكن لم يلبث الا يسيراً حتى قتل .

وأما مالك بن طوق فقد بنى الرجة ، وهي قلعة كانت على شاطئ الفرات وبعدت الآن عنها مسافة تقرب من ثلاثة أميال ، بنيت فيها مدينة تدعى الآن الميادين — على اعتبار الميل أربعة آلاف خطوة في كل تقدير أو ردها — وعصى فيها سنين عديدة ، وفي آخر الامر غلب وحصل له العفو

ولما أعلنت الحرب بين الامين والمأمون ابني هارون الرشيد ، لم يجد الخليفة الامين من يلبي نداءه باخلاص ، الا سكان دير الزور ، وكان نصر بن سيار العقيلي هو المعلن لنصرته بعد ما قتل ، سنة ١٩٨ إذرأى نصر هذا أن دولة الامين أعجمية فأعلن عصيانه عليها حتى أنه لما كلف بأن يبايع أحداً من خصوم العباسيين أبي ، وقال إن هوأى في العباسيين وانما حاربهم محاربة عن العرب لأنهم يقدمون العجم ، وأقام في الرقة وفي حران وبقي سنين . ثم

ضعف شأنه ، لأن أنصاره تخلوا عنه بسبب رأيه الذى أعلنه . وكان أيضاً سبب عفو المأمون عنه ولا زالت على هذا الحال حتى كانت سنة ٦٥٦ هـ وفيها محاربا هلكوا الدولة العباسية من العراق ، وأخرب تلك البلاد ، ثم عقبه تيمورلنك سنة ٨٠٤ فأكمل هدم مابقى من الآثار وتمزيق الانقاض ، ولم تبق الا الاطلال فلا حول ولا قوة الا بالله .

بعد واقعى هلاك تيمورلنك ، هجر أهل المدن المتضررة الصحارى واستبدلوا البنيان بالخيام ويوت الشعر ، حتى أصبحوا الاكثرية المطلقة ، وعاشت بعد ذلك فى عزلة عن العالم قروناً طويلة ، فوضى بلا حكومة ، وإنما يحكم البلاد رؤساء القبائل ، ويسمى ذلك العهد بزم «القلت» أى لعدم خضوعهم للدولة العثمانية ، وانفلاتهم من قيودها الثقيلة ، وكانوا فى غنى عن العالم كله ، بما تنتجه الارض من الاغذية وزراعة القطن ، وتقوم به البلاد من المصنوعات والاعمال التى تكفيهم وتغنيهم عن جلب حوائجهم من قطر آخر . حتى انه كان فى أغلب بيوت مدينة دير الزور والميادين والرقعة مصانع نسج الصوف والقطن بحيث تكفى الحضرين والبدو المحيطين بهم ، فلم يحتاجوا الى غيرهم مدة الفوضى كلها . وهذا هو الذى جعلهم يستطيعون الاحتفاظ بحياتهم الاستقلالية ، ويمدون لها المدد المادية ، على حسب وسعهم وما يكفل لهم تأمين ما يقصدونه ، فانك تجد المدينة القديمة متراحة على بعضها ، وبعبارة أفصح مجموعة حجار فوق كل حجرة غرفة أو سهوة — أى جزء غرفة — والشارع لا يزيد على ثلاثة أذرع ، ليسهل تعاونهم مع بعضهم ، فقد كان الفلاح يحرث أو يحصد وهو متنكب بنديقيته متقلد حسامه ، ومثله العامل ، خشية من الطوارئ ، فقد كانوا مزارعين أرباب صنائع . محاربين فى آن واحد ، ولذلك فان هذه البلاد كلما مر بها طامع آب خائباً فقد غزتها الجيوش العثمانية مرات ، ولم توفق لاختضاعها ، فتركها ، لوقوع البلاد فى غابات كثيرة يصعب على الجيش النظامى أو الاجنبى أن ينازلهم ، لانهم أعرف منه بالمواقع الحربية والطرق المفيدة والمسببة للظفر .

وبعد استفحال أمر الوهابيين ، واستيلائهم المرة الاولى على الحجاز سنة ١٢٢٠ هـ أرادوا أيضاً أن يحتلوا دير الزور بقيادة أحد شيوخهم المسمى «القعيط» فنزل بقرب البلد كضيف أولاً ثم هجم ليلاً بمجنوده يريد احتلال مدينة دير الزور قاعدة البلاد بالاستيلاء على قصر الشباب المبني خارج المدينة — هو اليوم شرقي دار الحكومة متصل بها — ومنه

يدخلونها من باب الجسر ، الذى هو الباب الشرقى . لأن للمدينة بابان باب الجسر عند الجامع العمري ، ويقابله فى الغرب باب الهواء عند العوير ، فقتل القائد مع أكثر جيشه ولم ينج إلا النادر .

وفى غصون سنة ١٢٥٠ وصل اليها أحد قواد ابراهيم باشا ابن محمد على المسمى "قفطان" فبقى أشهراً كضيف ثم خرج منها .

وفى سنة ١٢٨٠ هـ مر السردار عمر باشا " والى بغداد " وكانت مدينة دير الزور منقسمة على نفسها ، وقواها منهوكة ، من حروبها مع العشائر . مع استمرار النزاع ، وكان بعض المفسدين من الأسر التى لا تزال مثالا للفساد والاضرار ، أشعل نار الفتنة بحركات جنونية ، حيث جمع من الأهليين طحيناً كضيافة للعساكر التركية ، فباعه منهم بعد أن مزجه بالحب فحصلت المصادمة مع الجيوش العثمانية ، التى غلبت فى أول الأمر حيث أن الأهليين متمرنون على السلاح أكثر من الجيش التركى ، فتلفت منهم مئات ، ولم يقتل من الأهليين شخص واحد ولكن أعاناه بعض الزعماء ، وعاموه مداخل البلدة ومواطن ضعفها ، فضرب بمدفعه مأذنة الجامع الكبير فقلع رأسها ، ولا يزال مشاهداً حتى الآن ثم دخل الجيش من باب الهواء لأنه كان خلواً عن المحاربين ، حيث كانت الجبهة فى الوسط فأمر السردار بإباحة أعراض المدينة ودماء أهلها وأموالهم ، شأن الأتراك عندما يدخلون بلدة عنوة . فبقيت مدة كذلك . ثم جاءت العشائر ونهبت المدينة ، حتى صارت قاعاً صفصفاً ، فكانت نكبة عظيمة جداً . ثم أناب عنه قائمقام عسكرياً ، وجعلها مربوطة الى بغداد ، بعد أن أخذ مائتى شاب استند بهم جنوداً فى السليمانية أحدى المدن المربوطة فى ولاية الموصل ، وذلك عوضاً عما تلف من جنوده .

محمد سعيد العرفى

## كن عظيم

قال بعضهم : أكثر الناس يتعمون لغتين لا يحسنون الكلام أو الكتابة باحداها . ويدرسون فرعين من فروع العلم لا يتقنونهما ، ويزاولون فنين دون أن يبلغوا حد الإجابة فى أحدهما . تلك علة التقلب وهو ذلك السد المنيع الحائل بين الحقارة والعلية . لقد مضى زمان كان على العالم فيه أن يعرف قليلا من كل شيء . وجاء زمن أصبح فيه كل شيء إلا ما تخصص فيه محموداً . ولا يكون الانسان عظيماً إلا إذا أجاد فى فنه



الموسيقية العمياء



أحد النقوش المصرية  
التي تزين بها السقوف . وجدت في قبر سبتاح